من الخزانة الشرقية

بقلم حبيب زيات

الفسيفساء

وصناعها قديماً من الروم الملكيين

الفسيفساء ، كما يدلّ عليه لفظها ، صناعة رومية . وهي فصوص صغيرة تكون إمّا من الزجاج الملوّن ، وبعضه شافّ كالجامات[1] . واما من الحجر المعجون تُغشّى بالذهب ويطبق عليها زجاج رقيق . ثم يُعجن الشِيد ، اي الجصّ ونحوه ، بالصمغ العربي ؛ ويبسط على الحائط ؛ وترصع فيه هذه الفصوص[2] على اشكال شتى ونقوش محكمة . تتألف منها صور ورسوم وكتابات تتلألأ بالذهب والاصباغ الزاهية . فتبهر الابصار برونقها وبهجتها ولطافة صنعتها . ويؤخذ من وصف شهاب الدين العمري لها ان ما كان معمولاً منها بالزجاج ، ممرّهاً بالذهب ، كان يقال له المحور (اي المطلي) وهو القديم . وكانت قطعه متناسقة على مقدار واحد[3] . ويقال له ايضاً الرومي او القسطنطيني ، نسبة الى اصل وضعه بالقسطنطينية ، لا انه من عملها دائماً . ومنه ما هو بجامع دمشق ، وفي قبة الصخرة ، وما كان في مسجدَي المدينة ومكة[4] .

ويُعرف الجديد من القديم بان قطعه مختلفة غير متساوية . واكثر ما يكون من المعجون الملوّن . قال العمري : وقد عُمل منه في هذا الزمان شيء كثير برسم الجامع الاموي . وحمل منه عدة صناديق وفقدت في الحريق الواقع سنة اربعين وسبعمائة (١٣٣٩ م) وعُمل منه قِبَل للجامع التنكزي . ما على جهة

---

١) مروج الذهب للمسعودي ، بهامش الجزء الثاني من الكامل لابن الاثير ، ص ٢٢

٢) احسن التقاسيم للبشاري المقدسي ، ص ١٥٨ ، حاشية c

٣) مسالك الابصار ، ٣ : ١٩٢

٤) التعريف بالمصطلح الشريف للعمري ، ص ١٨٥

المحراب . غير انه لا يجيء تماماً مثل المعمول القديم في صفاء اللون وبهجة المنظر[١] .

وأقدمُ مَن ذكر صنّاع الفسيفساء بالشام ، فيما وقفنا عليه ، البلاذري صاحب « فتوح البلدان » ، المتوفى سنة ٢٧٩ للهجرة (٨٩٢ م) قال ، بعد ان روى امر الوليد بن عبد الملك الى عمر بن عبد العزيز عامله على المدنية بهدم المسجد وبنائه : « وبعث اليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعاً من الروم والقبط من اهل الشام ومصر »[٢] . وفي قراطيس البرديّ المحفوظة في خزائن بريتيش موزيوم ان القبط ، الذين كان الامويون يستعينون بهم في ابنيتهم ، كانوا فعلة وبنّائين ونجارين فقط . ولم يكن بينهم صانع فسيفساء[٣] . وفعل مثل ذلك الخليفة العباسي المهدي ، حين اراد اعادة بناء المسجد الحرام بمكة . فألبس اروقته من الظاهر بالفسيفساء . وشاهدها البشاري المقدسي فقال : « حمل اليها صناع الشام ومصر . ألا ترى اسماءهم عليه . »[٤] ولا شك ان هذه الاسماء كانت منقوشة بالعربية حتى استطاع تمييزها . وليتهُ ذكر لنا بعضاً منها .

وقد اشتبه اسم « الروم » على اليعقوبي[٥] ، والطبري[٦] ، وابن الاثير[٧] ، وسائر من نقل عنهم من الكتبة والمؤرخين ، وظنوا ان صناع الفسيفساء كانوا من القسطنطينية . ولم يروا بدّاً من تقدير قدومهم منها بطلب من الوليد بن عبد الملك . زعموا انه كتب الى القيصر يسأله ان يعينه على عمارة مسجد النبي . فبعث اليه بالرجال والعمال واحمال الفسيفساء والذهب[٨] . واختلفوا في العدّة . فابانوا

١) مسالك الابصار ١ : ١٩٣

٢) فتوح البلدان (طبعة اوربة) ، ص ٧

٣) E. de Lorey et M. van Berchem, *Les mosaïques de la mosquée des Omayyades à Damas*, II, p. 7

٤) احسن التقاسيم ، ص ٧٢

٥) تاريخ اليعقوبي (طبعة ليدن) ١ : ٢٤٠

٦) تاريخ الرسل والملوك (طبعة ليدن) ٣ : ١١٦٤

٧) الكامل (طبعة مصر) ٤ : ٢٠٣

٨) تاريخ اليعقوبي ١ : ٢٤٠

الصناع الى مئتين. وزاد ابن خلدون ان الوليد استكثر معهم من فعلة الشام[1]. وجروا على هذا النمط من المجازفة والتخريف في كلامهم على بناء مسجد دمشق، واضافوا ان الوليد وجّه الى الطاغية، كما يقولون، «يأمره» بانفاذ الرجال والاموال والفصوص. وانه ملأ خطابه زجرة وتهديداً. وتوعد فيه بغزو بلاد الروم. وإزالة كل آثارهم في الاسلام «وتخريب كل كنيسة في بلاده حتى كنيسة القدس وكنيسة الرها.»[2] ان لم يبادر صاغراً ذليلاً الى امتثال امره. ومن الغريب ان خطاب الوليد لملك الروم من اجل مسجد المدينة. وخطابه ايضاً في بناء جامع دمشق — على افتراض صحتهما — كانا في آن واحد. لان بناء المسجدين ابتدأ حقاً في سنة سبع وثمانين للهجرة (٧٠٦ م) فكيف اختلفت اللهجتان هذا الاختلاف الشديد القبيح. وماذا حدث من الأحداث العظيمة في فترة ما بين الخطابين حتى تحوّل الوليد لفوره من موقف السائل المستعين الى مقام المتوعّد المستطيل. وابن عزّة الخلافة في موقفه الاول. وهل كان الوليد مفتقراً الى صدقات كلب الروم، كما يسميه البشاري. وهم يزعمون انه انفق في المسجد خراج الشام سبع سنين فضلاً عن ثماني عشرة سفينة ذهب وفضة اقلعت من قبرص.[3]

وقد تباينت اقوالهم ايضاً في عدّة صنّاع الروم القادمين، في دعواهم، من القسطنطينية لزخرفة الجامع الاموي حتى جعلها ابن جبير وابن بطوطة في رحلتيهما[4]، وشمس الدين البصراوي في فضائل الشام[5]، اثني عشر الفاً. واربى عليها محمد بن ابي بكر السرقندي في التهويل والإغراق. فلم يتوقف عن ايصالها في كتابه تاريخ البلدان[6] الى اربعين الفاً، دون ان يفطن احدهم الى

١) العبر ٣ : ٦٠

٢) الثالث من الاعلاق الخطيرة لابن شداد، بريتش موزيوم Add. 23333, f°3

٣) احسن التقاسيم، ص ١٥٨

٤) رحلة ابن جبير (طبعة ليدن) ص ٢٦١؛ ورحلة ابن بطوطة تحفة النظار (طبعة باريس) ١ : ١٩٨

٥) تحفة الانام في فضائل الشام، خزانة باريس ٢٢٥٣، ص٥

٦) من مخطوطات الخزانة المذكورة.

استحالة إنزال مثل هذا الجيش العرمرم من الروم الاعداء في حاضرة الخلافة ، ولاسيما في وقت كانت الحروب فيه قائمة على قدم وساق بين المملكتين ، كما سيجيء .

وما ندري كيف فات كل هؤلاء المؤرخين ان فسيفساء دمشق او المدينة لم تكن اول زخرفة في المساجد . وان عبد الملك بن مروان سبق ابنه الوليد باتخاذها في قبة الصخرة ببيت المقدس . وفرغ منها ، كما هو مكتوب فيها ، سنة اثنتين وتسعين (٦٩١ م) ، اي قبل الشروع ببناء مسجدي المدينة ودمشق بخمس عشرة سنة . فاين وجد عبد الملك صنّاع الفسيفساء وقتئذ سوى في الشام وفلسطين ؟ وقد شهد سبط ابن الجوزي ، في مرآة الزمان ، انه لما عزم على بناء قبة الصخرة والجامع الاقصى « سار من دمشق ومعه الاموال والعمال . »[1] ولذلك لم يشر احد من الرواة والمؤرخين الى استعانة عبد الملك بملك الروم لاستقدام صنّاع الفسيفساء من القسطنطينية . وقد كان اكثر دالّة عند البيزنطيين واحقّ لديهم بالمداراة والاهداء ، في حين كان يدفع لهم الجزية لاشتغاله عنهم بحرب ابن الزبير . خلافاً لابنه الوليد . فانه ، منذ تبوّأ عرش الخلافة ، لم يفتأ يوالي الغزوات الصائفة والشاتية على الروم ، ويسبي ديارهم قتلا وتخريباً ، بحيث لم يُبقِ موضعاً للصلح والمجاملة . ولكي يتضح جلياً امتناع الموادعة والمساعدة بين خصمين كان الوليد بينهما هو البادئ بالعداوة والعداء ، لا بأس ان ننقل هنا عن ابن الاثير تفصيل هذه الغزوات التي قام بها الوليد منذ سنة ست وثمانين الى ست وتسعين للهجرة (٧٠٥–٧١٥ م) ، اي منذ خلافته الى موته :

« سنة ست وثمانين فيها غزا مسلمة بن عبد الملك ارض الروم . (الجزء الرابع ، ص ٢٠١) .

« سنة سبع وثمانين قيل وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك الروم فقتل منهم عدداً كثيراً بسوسنة من ناحية المضيصة وفتح حصوناً .

وقيل ان الذي غزا في هذه السنة هشام بن عبد الملك .

---

[1] خزانة بريتش موزيوم ، Add. 23277, f° 1-2

فتح حصن بولق . وحصن الاخرم . وحصن برلس . وقتل من المستعربة نحواً من الف مقاتل . وسبى ذريتهم ونساءهم . (ص ٢٠٢)

« سنة ثمان وثمانين — في هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد ابن عبد الملك بلد الروم . . . فاقتتلوا هم والروم . فانهزم الروم . ثم رجعوا . فانهزم المسلمون . فبقي العباس في نفر . . . فنادى يا اهل القرآن فاقبلوا جميعاً . فهزم الله الروم حتى دخلوا طوانة . وحصرهم المسلمون وفتحوها في جمادى الاولى . (ص ٢٠٣)

« سنة تسع وثمانين — قيل في هذه السنة غزا مسلمة بن عبدالملك والعباس بن الوليد بن عبدالملك الروم . فافتتح مسلمة حصن عمورية . وفتح العباس ادرولية . ولقي من الروم جمعاً فهزمهم . وقيل ان مسلمة قصد عموريه فلقي بها جمعاً من الروم كثيراً فهزمهم وافتتح هرقلة وقودية . وغزا العباس الصائفة من ناحية البذندون . (ص ٢٠٤)

« سنة تسعين — في هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك ارض الروم . ففتح الحصون الخمس التي بسوية . وغزا العباس بن الوليد حتى بلغ ارزن . وبلغ سورية . (ص ٢٠٩)

« سنة احدى وتسعين — في هذه السنة غزا عبد العزيز بن الوليد الصائفة . وكان على ذلك الجيش مسلمة بن عبد الملك . (ص ٢١١)

« سنة اثنتين وتسعين — في هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك ارض الروم . ففتح حصوناً ثلاثة . وجلا اهل سوسنة الى بلاد الروم . (ص ٢١٢)

« سنة ثلاث وتسعين — في هذه السنة غزا العباس بن الوليد الروم . ففتح سبسطية . والمرزبانين . وطرسوس . وفيها غزا مروان بن الوليد فبلغ خنجرة . وفيها غزا مسلمة الروم ايضاً ففتح ماسية . وحصن

الحديد. وغزالة من ناحية ماطية. (ص ٢٢٠)

« سنة اربع وتسعين في هذه السنة غزا العباس بن الوليد ارض الروم ففتح انطاكية. وفيها غزا عبد العزيز بن الوليد فبلغ غزالة. وبلغ الوليد بن هشام المعيطي برج الحمام. ويزيد بن ابي كبشة ارض سورية. (ص ٢٢١)

« سنة خمس وتسعين في هذه السنة غزا العباس بن الوليد الروم ففتح هرقلة وغيرها . . . وفي هذه السنة افتتح العباس بن الوليد قنسرين. وفيها قُتل الوضاحي بارض الروم ونحو الف رجل معه. (ص ٢٢٤)

« سنة ست وتسعين فيها غزا بشر بن الوليد الشاتية. ورجع وقد مات الوليد. (الجزء الخامس، ص ٣) »

ففي كل هذه السنوات اذاً لم تكن الحال تتسع للهادنة والمهادنة لاتصال الحروب فيها بين الوليد والروم. فكيف يعقل ان يتبرّع ملك الروم فيها لعدوّه بمال كان هو احوج الى إمساكه. وكيف يقبل طوعاً إعانة الوليد على هدم كنيسة الروم المنتسبين اليه بدمشق. وتحويلها الى مسجد على يد صنّاعه الاخصاء. بعد ان كان هو اول منكر لهذا التحويل فيما حكاه اكثر المؤرّخين في الاسلام.

وقد جهل المؤرخون البيزنطيُّون كل هذه العلائق المزعومة بين الملكين. ولم يشيروا بحرف الى كل هذه الهبات والاعانات بالرجال والاموال واحوال الفسيفساء، في كلامهم على اغتصاب كنيسة دمشق وتحويلها الى جامع اموي.

ومن البليّة ان يذهل كل من ذكر الفسيفساء، بعد البلاذري، انها كانت معروفة في الشام، ومصر، والعراق، واليمن، قبل ان يولد الوليد، وقبل ظهور الاسلام. وان صناعتها لم تكن غريبة بدمشق. بل كانت بلديّة منتشرة في انهات المدائن التي كانت في ملك البيزنطيين. وخصوصاً في انطاكية واورشليم ومادبا. بحيث كانت اعظم الكنائس واهم الاديار مزدانة في جدرانها، وسقوفها، وهياكلها، بهذه الفصوص المذهبة على ضروب شتى من التشكيل والتصوير. وقد تنافس فيها كل المسيحيين من الملكيين، واليعاقبة، والناطرة، حتى العرب

انفسهم من اللخميين ، والغسانيين ، والنجرانيين . ومن اهم الشواهد على ذلك قول البكري :

« كان اهل بيوتات يتبارون في البيع وزينتها . آل المنذر بالحيرة . وغسان بالشام . وبنو الحارث بن كعب بنجران . ويعتمدون ببنائهم المواضع الكثيرة الشجر والرياض والمياه . وكانوا يجعلون في حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب. وكان على ذلك بنو الحارث الى ان اتى الله بالاسلام. »[1]

ولما قدم ابرهة الحبشي الى صنعاء في اليمن ، وبنى فيها كنيسته المشهورة ، جعل فيها الفسيفساء . وهي التي حُمل منها الى مكة ، لما شرع ابن الزبير في بناء الكعبة ، فيما رواه المسعودي[2] . واقتدى بابن الزبير الوليد من الامويين . والمهدي من العباسيين . حين جددا مسجدَي المدينة ومكة . فبناهما بانقاض الكنائس والاديار ، شأنَ كثير من المساجد في الاسلام . ومن هنا يُعلم غلط الرواة المؤرّخين الذين زعموا ان الوليد كتب الى ملك الروم يسأله ان يعينه على بناء مسجد المدينة . فبعث اليه ، فيما قالوا ، باربعين حملًا من الفسيفساء مع الرجال والاموال . وانما كانت هذه الاحمال مما قُلع من البيع والديارات والخرائب في الشام . ولنا على ذلك شهادة الطبري حين ذكر بناء مسجد المدينة قال : فأمر الوليد ان تتبع الفسيفساء في المدائن التي خربت فيُبعث بها الى عامله عمر بن عبد العزيز[3] . وعلى مثل هذه الخطة جرى ايضاً في بناء جامع دمشق . وتقدم الى غزاة الروم ان يحملوا اليه كل ما يجدونه من قطع الرخام والفسيفساء . فكانت تحمل اليه احياناً على البريد[4] واحياناً كثيرة على الظهور . وهو ما حكاه الامير خالد التميمي قال :

« كنا معشر اهل النشء واخواننا من اهل مصر والعراق ننزو . فيُفرض على

---

١) معجم ما استعجم في اسماء البلاد والمواضع . وفي النص المطبوع : « وزينها » ، وفي ياقوت (طبعة اوربة) : « وزخرفه » . وكلاهما تصحيف .

٢) مروج الذهب . جماشر كمل من الذخيرة ٦ : ١٣٨

٣) تاريخ الرسل والملوك (طبعة اوربة) ٢ : ١١٦٤

٤) التعريف بالمصطفى الشريف للتميمي ، ص ١٨٥

الرجل منا ان يحمل من ارض الروم قفيزاً من فسيفساء . وذراعاً في ذراع من رخام . فيحمله اهل العراق واهل حلب الى حلب . ويُستأجر على ما حملوه الى دمشق . ويحمل اهل حمص الى حمص . فيستأجر على ما حملوه الى دمشق . ويحمل اهل الشام ومن وراءهم حضتهم الى دمشق . »[1]

ومن ثمَّ فليس الّا الله وحده يعلم ما دخل في جامع دمشق من السلب والغصب والعواري .

وانما امتثل الامويّون والعباسيون بما فعله قديماً انوشروان ملك الفرس . والتقليد من اقدم خصال الشرق . روى المسعودي انه لما عاث في مدن الشام وافتتح ارض الروم، «نقل من الشام المرمر والرخام وانواع الفسيفساء والاحجار . . . وحمل ذلك الى العراق فبنى مدينة نحو المدائن وسماها برومية . وجعل بنيانها وما داخل سورها مما ذكرنا من انواع الاحجار . يحكي بذلك انطاكية وغيرها من مدن الشام . »[2] وهو دليل آخر على كثرة ما كان من الفسيفساء في الشام وانتشارها في كلّ الانحاء والابنية حتى استطاع انوشروان نقل ما يكفي لتزيين مدينة برمتها تحاكي انطاكية . ولا غرابة في ذلك . فان انطاكية لا تزال الى اليوم معدن الفسيفساء في الشام لكثرة ما يكتشفه علماء الآثار في حفائرهم فيها من الرسوم والبقايا . وتكفي الاشارة في فلسطين الى مادبا في البلقاء ، ومصوّرها المشهور ، ووفرة اشغال الفسيفساء فيها ، ونقوشها في ابنيتها القديمة ؛ مما يشاهد اليوم متفرقاً في منازلها ودورها ، ليُعلم انتشار هذا الفن في كل الديار الشامية ، وانه كان فنيا قبل خلافة الامويين فناً بلدياً راسخ القدم ، له صناعه واساتذته من اهلها ، يتوارثه الخلف عن السلف دون اقل حاجة الى الاستعانة عليه برجال القسطنطينية .

ولا شكّ ان الوليد لم يتخذ في جامع دمشق هذه الفصوص المذهبة الرائعة الا لأنه كان عاينها وأعجب بها في كنائس دمشق . وقد نقل لنا البشاري المقدسي رأياً سمعه من عمه ، يدلّنا على السبب الذي اغرى الوليد ببناء جامعه بمثل هذه

١) مسالك الابصار للعمري ، ص ١١١

٢) مروج الذهب ٢ : ١٣٤

الزخارف والفنون ، قال :

« قلت لعمي : يا عم . لم يحسن الوليد حيث انفق اموال المسلمين على جامع دمشق . ولو اصرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورمّ الحصون لكان اصوب وافضل . قال : لا تعقل يا بني . ان الوليد وُفّق وكُشف له عن امر جليل . وذلك انه رأى الشام بلد النصارى . ورأى لهم فيه بيعاً حسنة . قد اتقن زخارفها وانتشر ذكرها كالقيامة . ولدّ . والرها . فاتخذ للمسلمين مسجداً شغلهم به عنهنّ . وجعله احدى عجائب الدنيا . الا ترى ان عبد الملك لما رأى عظم قبة القيامة وهيئتها خشي ان تعظم في قلوب المسلمين . فنصب على الصخرة قبة على ما ترى ».[1]

وغنيٌّ عن البيان ان صناعة كالفسيفساء كان هذا قِدَمها وانتشارها في الشام ، فضلاً عن سائر الاقطار ؛ وكان لا بدّ منهـا لفن البناء والزخرفة في تزيين البيَع والاديار ، وتزويق القصور والدور ، وتخليد الرسوم والآثار ، يبعد جدًّا ان لا يكون استقرّ لها قواعد ورسوم ، وانقطع لمزاولتها صناع واساتذة في كل بلد . وتناقلها الابنـاء عن الآباء . وقد عُرفت دمشق خصوصاً في كل زمن ببراعة صنّاعها ومعلّميها ، وافتنانهم في كل حرفة . كما تشهد بذلك كل المصطلحات التي اتخذت من اسمها وعُبّر بها عن بعض ضروب الانسجة والاسلحة : damas, damasser, damasquiner ,damasquinage ولا تزال الى اليوم شائعة محفوظة في كثير من اللغـات الاوربية ، للدلالة على نسبة الفن الواردة فيه الى اصل دمشقي ، من قبـل ان يغني تيمورلنك اهل الفيحاء بالقتل والتشريد ، وينقل بقية حذاق عمالها الى سمرقند . وما برح هذا الاتقان والابداع مسلّماً به لهم في كل عصر ومصر . ولذلك قال شهاب الدين العمري في كلامه على دمشق : « وبها الصناع المَهَرة في كل فن ... وتعمل بها لطائف الاعمال في كل نوع . وصناعها تفخر على بقية صناع المملكة - الا فيما قلّ . »[2] وقد نعتها الحاج تيمار

---

١) احسن التقاسيم ، ص ١٥٩

٢) مسالك الابصار . خزانة باريس ٢٣٢٥ ج ٣ : ٢١٠

في القرن الثالث عشر بقوله : [1] Civitas nobilibus et mirabilibus et diversis artificibus plena « اي مدينة حافلة باشهر الصناع المهرة المتفننين ». وزارها كثيرون من السيّاح الاوربيين وتجارهم واجمعوا على اطرائها بالاجادة في كل عمل. واثنوا غاية الثناء على تقدم صناعتها في كل باب وحرفة . وحسبنا ان ننقل هنا شهادة احدهم وهو سيمون سيگولي الايطالي الذي مرّ بها ، سنة ١٣٨٤ ، وعاين فيها من التحف والطُرف البلدية ما أعجب به غاية الاعجاب. وكتب عنها باظرف اسلوب واغربه قائلًا : لو كنت خبأت دراهمك في عظم ساقك لما توقفت عن كسره لتشتريها.[2] ولا غرو في ذلك لان دمشق ، منذ استيلاء الاسكندر على سورية سنة ٣٣٣ قبل المسيح ، الى دخول العرب وسقوطها في ايديهم سنة ٦٣٥ ، بقيت نحوًا من عشرة اجيال تحت رعاية اليونان والرومان والبيزنطيين. وتأدّب اهلها بآدابهم . وتدرّبوا في الصناعات والفنون على طرائقهم ومناهجهم . وحفظوا عنهم اساليب الاتقان ومرافق الحضارة . وقد اقرّ لهم بذلك الفرس والعرب. ولما قال الحجاج لزاذان فرّوخ في بعض اسئلته : أخبرني عن اهل الشام. قال : نزلوا بحضرة الروم فاخذوا من ترفّقهم وصناعتهم وشجاعتهم[3] . ولا حاجة الى القول ان من كانت هذه ثقافته ودربته ، ورُزق مثل هذه البراعة والمهارة ، لم يكن يعجز عن تعلّم حرفة الفصّ المذهب واستيضاح اسراره والتمكن منها ، على قرب مأخذها ، كما تقدم من وصفها ، وشيوعها في كل المدن والاصقاع الشرقية .

وعلى كلّ فاذا قدّرنا انه كان هنالك دواعٍ تقتضي حقًا حضور استاذ من اساتذة القسطنطينية لمشارفة العمل ، او لتقليد بعض اساليب الصناعة ، فلم تكن قط حاجة الى مثل هذا العدد الجمّ من البيزنطيين الذي جعله ابن عساكر مائتين وابلغه غيره من الغلاة والمخرّفين الى جيش ضخم لا يقل عن اثني عشر الفًا . وكان يغني عنه معلّم واحد من معلّمي الفسيفسآء البيزنطية تروّس صناعها

١) W. Heyd, *Histoire du commerce du Levant*, t. I, p. 171

٢) Simon Sigoli, *viaggio del monte Sinai*. Rome 1819, P. 58

٣) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ، ص ١١٤

الدمشقة. ألا ترى ان الخليفة الحكم الاموي لما اراد سنة ٣٥٤ للهجرة (١٠٦٥م) تزويق مسجد قرطبة ولم يجد عنده في الاندلس من يحسن صناعة الفصوص، اوفد الى ملك الروم في القسطنطينية — وكانت الصلات بينهما على احسن وجه لاجتماعهما على معاداة العباسيين — وسأله ان يمدّه باحد المهرة في الفن، فيما رواه ابن عذاري المراكشي في كتابه « البيان المغرب » . وهذا نصّ ما كتبه، وهو من المتأخرين الذين خُدعوا باسطورة ابن عساكر وحضور الروم من القسطنطينية لزخرفة جامع دمشق، قال :

« في سنة ٣٥٤ شُرع في تنزيل الفسيفساء بالمسجد الجامع. وكان ملك الروم بعث بها الى الخليفة الحكم. وكان الحكم قد كتب له في ذلك وامر بتوجيه صانعها اليه اقتداء بما فعله الوليد بن عبد الملك في بنيان مسجد دمشق . فرجع وفد الحكم بالصانع ومعه من الفسيفساء ثلاث مئة وعشرون قنطاراً بعث بها ملك الروم هدية . فأمر الحكم بإنزال الصانع والتوسيع عليه . ورتب معه جملة من مماليكه لتعلّم الصناعة . فوضعوا ايديهم معه في الفسيفساء المجلوب . وصاروا يعملون معه فابدعوا واربوا عليه . واستمروا بعد ذلك منفردين دون الصانع القادم اذ صدر راجماً عند الاستغناء عنه . بعد ان اجزل له المستنصر الصلة والكسوة. وتداعى الى هذه البنية كل صانع حاذق من اقطار الارض . »[1]

فاذا كان اهل قرطبة، على جهلهم قبلاً صناعة الفسيفساء وبعدهم عن مواطنها، لم يلبثوا ان تعلموها وحذقوا بها، حتى استغنوا عن الاستاذ الفرد الوارد من القسطنطينية، واربوا عليه واستقلوا دونه باشتغالها، فهل كان مهرة دمشق، وهم من سبقت لهم دربة عليها وإحسان لها، يحتاجون الى المئات والالوف من عمال القسطنطينية للقيام باعمالها . وقد تقدم من لفظ البلاذري ان صناع الروم الذين وجههم الوليد للمدينة كانوا من اهل الشام . وهم الذين قرأ صاحب احسن التقاسيم اسماءهم في الفسيفساء . وفي هاتين الشهادتين وحدهما، فيما عدا الادلة والحجج التي ادلينا بها، نقض صريح وإبطال لدعوى الواقدي

١) الجزء الثاني من البيان المغرب في اخبار المغرب لابن عذاري المراكشي (ليدن) ص ٢٥٢

واليعقوبي وابن عساكر وجهود مقلّديهم حين زعموا انهم من روم القسطنطينية . وانما خُدعوا جميعهم باسم « الروم » . فظنوا انهم منهم . وفاتهم ان اكثر النصارى بدمشق وكبار المدن السورية في عهد الامويين كانوا من فرقة الروم البلديين المعروفة بالملكية الى اليوم الحاضر . ومن هؤلاء الروم الشآميين كانت الكتبة واكثر عمال الخراج في الدواوين . واشتهر منهم خاصةً آل سرجون بن منصور ، جدّ ووالد القديس يوحنا الدمشقي ، كتّاب معاوية ، ويزيد بن معاوية ، ومعاوية ابن يزيد ، ومروان بن الحكم ، وعبد الملك بن مروان خلفاء بني امية . وقد ذكر غير واحد من المؤرخين سرجون وصحفوا كثيراً اسمه سرجون بالحآء . ومع كونه دمشقياً ، نشأ على ضفاف نهر بردى او قرفر ، نعتوه بقولهم « الرومي » كالبلاذري في انساب الاشراف (ص ١٩٢) ، والمسعودي في كتاب التنبيه والاشراف (ص ٣٠٢) والجهشياري في كتاب الوزراء والكتّاب (ص ٢٦) والطبري في تاريخ الرسل والملوك (٢ : ٨٣٧ طبعة اوربة) والصولي في ادب الكتّاب (ص ٢ ١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (التهذيب ٦ : ٧١) وابن عبد ربه في العقد الفريد (١ : ١٧٠ و ٢ : ٢٦٢) . وكانت دواوين الخراج يومئذٍ وكل ما يتعلق بها من الاعمال والكتابات والحسابات انما تُدوِّن بالرومية كفي ايام البيزنطيين . وكذلك كانت النقود رومية . وهو ما كان يقتضي لا محالة اختيار جمهور العمال من هؤلاء الروم البلديين الذين يحسنون الكتابة والحساب بالرومية . وبالطبع ان هؤلاء الكتاب كانوا لا يؤثرون احداً للقيام بالاشغال السلطانية على الصناع الذين يشاركونهم في المذهب لمعرفتهم اياهم بالحذق والاجادة في اكثر الفنون والصناعات منذ ايام البيزنطيين . ومنهم كان اكثر صنّاع الفسيفسآء لا شك في قبة الصخرة ومسجد المدينة . واكثر المرخمين ايضاً بمسجد دمشق ، وهم الذين روى ابن عساكر انهم كانوا اثني عشر الفاً .[1] وبقيت منهم بقية الى القرن الاخير حين احترق الجامع سنة ١٨٨٥ ، وأسند الى شيخ منهم من بيت وردة تجديد بعض اشغال الرخام فيه .

---

١) نزهة الانام في محاسن الشام للبدري ، ص ٢٦

وقد ذهب البعض الى ان لقب « الرومي » كان يُراد به كل نصراني في ديار الاسلام ، دون تخصص بفرقة الملكيين . ولكننا لم نجد ما يثبت هذا الرأي في ما طالعناه من كتب التواريخ الاسلامية . ولم نقف على قول واحد يؤيّد هذا التعميم . وانما شمل هذا اللقب النصارى عموماً ، والفرنج خصوصاً ، في افريقية وديار المغرب فقط ؛ اذ لم يكن فيها ، كما كان في مصر والشام والعراق والجزيرة وفارس ، مثل تشعب المذاهب وافتراقها في الشرق الى ملكية ونسطورية ويعقوبية وهي اهم الفرق . واكثر ما كانت تجيء النصارى الى افريقية من القسطنطينية ، وصقلية ، وكلابرية ، وايطالية الجنوبية حين كانت هذه البلاد جميعها في ملك قياصرة الروم . فالنصراني عندهم « رومي » على الاطلاق لوحدة المذهب والمعتقد . كما كان الفرنجي يُعدّ في الشرق « ملكيًا » لدخوله في جملة من يدينون بطاعة الباب بطريرك الملكيين[1] . ولا يزال لقب « الرومي » في تونس والجزائر ومراكش وسائر المغرب يتناول اليوم كل نصراني بالاجمال من كل الشعوب .

وكان العرب ، في بدء الخلافة الاموية ، لا يكادون يعرفون احدًا من الاعاجم معرفتهم للروم ، لمجاورتهم لهم في الشام والعراق ، وعلاقتهم بهم اكثر مما كانت بالفرس منذ ايام الجاهلية ، لاجتماعهم معهم في الدين المسيحي . فلم يكونوا يتعثرون في نسبتهم . وكان كتاب الانشاء السلطاني يعلمون خصوصاً اتمّا . كل ملك وعوه من النصارى عامة كما يتحقق ذلك من نظر في كتب المصطلح الشريف كالتعريف ، وتثقيف التعريف ، وصبح الاعشى . فالاشتباه بين الروم وسائر الطوائف المسيحية لم يقع قطّ في كتب الاخبار والتواريخ الشرقية . وانما كان يتناول احيانًا الروم البيزنطيين والروم الملكيين لوحدة الاسم والمذهب بينهم . وهو الاشتباه الذي وقع فيه الواقدي واليعقوبي وابن عساكر ونظائرهم ومقلدوهم في كلامهم على فسيفساء الجامع الاموي . ونشأت عنه اسطورة حضور جيوش الهرقل من القسطنطينية .

وقد تفرّعت الآنسة مرغريت فان بوشم ، وهي من المتخصصات بعلم فن

---

(١) صبح الاعشى للقلقشندي ١١ : ٣٧٧ ، و ٥ : ٣٠٨ و ٤٠٨

الفسيفساء ، ولها فيها تأليف حسن ، لدرس هذه المسئلة من وجهيها التاريخي والفني . ومع تسليمها ببعض مشاركة للقسطنطينية باشغال دمشق ، فقد رأت بعد إنعام النظر في فصوص دمشق ومقابلتها بما عاينته من آثار الفسيفساء الباقية في احيا صوفيا في القسطنطينية وبعض ابنية سالونيك ، ان طرائق الفن هي واحدة في كل هذه الاشغال . ولكن لدمشق اسلوب خاص في تأويلها وزيادة في تمثيلها وتلوينها بمقدار لا يشاهد في فصوص القسطنطينية ، اقتبسته دمشق من بيئتها الشرقية[1] .

واذا كانت هنالك حقاً مشاركة من القسطنطينية في جامع دمشق ، فهي عندنا لم تتجاوز « الآلات والفسافساء »[2] كما يستدل من شهادة الامير خالد القسري . وحسبما جاء من لفظ البشاري من كلام له حكى فيه من جملة ما كان « يقال » في زمانه ، اي قريباً من قرنين قبل ابن عساكر : « ان الوليد جمع لبناء جامع دمشق حذاق فارس والهند والمغرب والروم »[3] . وكان الجامع عندهم يعد كما سبق من لفظه ايضاً « احدى عجائب الدنيا » . فلا غرو اذا تسابقت السُّار والقُصّاص الى تعظيم شأنه ، وتبارت القرائح والمدائح في نسبة تشييده وزخرفته الى اشهر مهرة بلاد الصناعات في الدنيا ، وفي مقدمتها وقتئذ بلاد الروم المعروفة بالتآنق والابداع في الفنون . ومن الغريب ان تكون المخيلة الشرقية ذكرت الهند وذهلت عن الصين .

ولعل في ما قدمناه من هذه الشروح والاستدراكات غناء لنقض خرافة « روم القسطنطينية » واثبات صناعة الفسيفساء لروم دمشق . بحيث يحق غداً لمؤرخ المدينة عد الفسيفساء قديماً بين مفاخر الصناع الملكيين في الفيحاء .

---

1) *Les mosaïques de la mosquée des Omayyades à Damas*, II, p.16

٢) احسن التقاسيم ، ص ١٥٨

٣) احسن التقاسيم ، ص ١٥٨